«مشروع المجاورة» كمشروع يحقق فرصاً للأطفال

كوثر البرغوثي

مشروع في مَثَل

«جاور السعيد تسعد»، مثل كانت جدتي ترددهُ كثيراً كنت أسمعه منها معتقدة أن المقصود بالسعيد هو ذلك الشخص الدائم الفرح، والمرح، أو صاحب الوضع الاقتصادي الجيد، ومن يكون قريباً منه سيسعد بالتأكيد، إلى أن نضوج وعيي بالحياة، واتساع تجربتي فيها، جعلاني أجد معاني أخرى يحملها هذا المثل، ومع الوقت أصبح مرتبطاً بفكري ومهنتي وأمنيتي معاً، وأن السعيد هو الشخص الذي تصالح مع مهنته، وأصبح همه الوحيد هو إحداث التغيير لصالحه وصالح من حوله والمجاورين له، وأقصد هنا مهنة التعليم بشكل عام، والمعلم بشكل خاص، الذي يصبح جل اهتمامه هو النهوض بعمليات تعليم الأطفال الذين لم تتح لهم فرص كثيرة ليستكشفوا ويتعلموا بطرق تعلم تجلب لهم المعرفة، في سياقات تتضمن صناعة السعادة كدافعية كبرى. فالمعلم السعيد هو صاحب المشروع الناجح الذي يحقق له ولمن يجاورهُ السعادة والرضى إلى حد ما.

عن أي مشروع أتحدث؟!

عن مشروع تتجلى فيه كل معاني العمل الجاد، والتعلم العميق، الذي يضع أطفالنا على عتبة الحياة، يخوضون رحلتهم فيها ويستكشفون عبرها الكثير من المعارف والقيم، يكونون مسؤولين عن تعلمهم الذي يخوضونه بالعمل من أجل انفسهم، وليس من أجل إرضاء أحد؛ سواء أكانت المعلمة أم نظام التعليم الأشمل الذي لا يعيره الأطفال انتباهاً.

مشروع تتجلى أهميته في تكامليته وشموليته وتعميقه للكثير من الأمور التي تبدو سطحية إذا ما قدمت بالشكل التقليدي المتعارف عليه، مشروع يوفر فرصة للأطفال ليعرفوا أكثر مما يقدمه لهم المنهاج والتعليم العادي، وذلك عبر التجربة، يجربون من خلاله أموراً لا يستطيعون تجربتها في الواقع دون الخوف من الوقوع في الخطأ، عبر توظيف خيالهم الذي يعتبر حيزاً لا يحاكمون أو يعاقبون عليه، فالأهل والنظام يقيدون خيال الطفل كما حركته، ولا يسمحون له بخوض الكثير من التجارب التي تعد ممتعة، وتوفر له الكثير من التعلم. أذكر هنا طفلة في مشروع المجاورة الذي نفذناه مع عدد من الأطفال في مدرسة الحرية الأساسية المختلطة في بيتونيا، بالتعاون مع عدد من باحثي مركز القطان للبحث والتطوير التربوي ضمن مشروع «التعلم عبر المشروع». كانت هذه الطفلة تريد استخدام الفأس للزراعة، وذكرت أن أبيها يخاف عليها من ذلك، ولا يسمح لها بالزراعة أيضاً، مع أنها تحب ذلك كثيراً، لكن انخراطها في المشروع أتاح لها تحقيق ما رغبته باستخدام الخيال الآمن.

كذلك يتيح مشروع المجاورة الفرصة للأطفال ليشكلوا قيمهم الخاصة التي تتعارض أحياناً مع القيم التي يستقونها من بيئاتهم التي يعيشون فيها، ففي أحد المشروعات يكتشف الأطفال دخول أحد ما إلى البيت وكسر محتوياته. عندها أثار الأطفال، وبخاصة الذكور موضوع العنف، وإطلاق الرصاص، والسجن، فتنبهت المعلمة لردود أفعالهم، فطرحت عليهم السؤال الآتي: هل هذه هي الطريقة الوحيدة لندافع بها عن أنفسنا؟ نحن في قصتنا يجب أن نجد طرقاً أخرى للتصرف غير التي طرحت. هنا كان على الأطفال أن يفكروا ويبتكروا حلولاً إبداعية، ليس لإيجاد إجابات فحسب، بل لطرح تساؤلات أيضاً للتوصل إلى فهم أكثر عمقاً يقنعون به الآخرين.

أطفال صغار وموضوعات كبرى

من خلال عملي في المشروع كمركزة مع المربيات أشاركهن مراحله

بدءاً من التخطيط وانتهاء بالتأمل، كنت أتساءل حول الكثير مما يحدث، ومما أسمعه من المربيات حول انخراط أطفالهن في المشروع. ومن التساؤلات التي برزت في مشروع «أطفال وقضايا إنسانية كبرى» الذي يتمحور حول قصة «شجرة البلوط»:

ما الذي يجعل أطفال بأعمار صغيرة جداً يطرحون قضايا كبرى، ويحاولون إيجاد حلول لها يعجز الكبار أحياناً عن طرحها أو التفكير بها؟

لكن ما أعتقده من خلال تجربتي، هو أن السبب يكمن في وجود مربية تمتلك الوعي الكافي لتوفر لأطفالها السياقات المناسبة والآمنة التي تستطيع من خلالها أن تنقل الطفل من مرحلة إلى مرحلة، محملاً بالقيم والأخلاقيات والفهم اللازم، وليس محملاً بالحروف والأرقام المجردة الخالية من المعنى فحسب، فما الجدوى من القراءة والكتابة إن لم تكونا ذات معنى.

كل هذا يتجلى من خلال العمل مع الأطفال من قبل مربيات تم تدريبهن ليكنّ قادرات على أن يتعرفن على أطفالهن في الروضة، وقادرات على الخروج بأطفال كل واحد منهم هو مشروع بحد ذاته، له بصمته الخاصة التي تميزه.

الطفل محمد الذي كان من ضمن أطفال أتيحت لهم الفرصة ليكون في روضة تتبنى هذا النوع من المشاريع، كان يصنف بالطفل (الضعيف) بناء على تصنيفات التعليم التقليدي العادي، ولكن المشروع وفّر لهذا الطفل الفرصة لكي يكون قادراً على الفعل ... فقد قام بنزع شارته التي كتبت له المربية اسمه عليها في بداية العمل، وألصقها على الجزء الخاص به من العمل ... هنا انتزع هذا الطفل كينونته، وصرخ دون صوت: أنا هنا، أنا موجود.

اعرفني لتعرف ما أحتاج!

هذا ما يقوله لسان حال الأطفال دون أن يتكلموا أو حتى يدركوا أهمية هذا الشيء. للأسف، الكثير منا كمربيات لا نعير هذا الجانب الكثير من الاهتمام، ونتعامل مع الصف ككتلة واحدة دون إدراك أن لكل فرد خصوصيته التي تميزه، وقد وفر مشروع المجاورة الفرصة للمربيات أن يعرفن أطفالهن على حدة، ما يحب أن يكون وما يحب ألا يكون، كيف يفكر، وبماذا يفكر، مخاوفه واهتماماته، ومنحه الفرصة للتجريب والخطأ، وتصويبه بطريقة غير مباشرة غير مباشرة بعيداً عن الأسلوب المباشر والمنفر.

إحدى المعلمات في المشروع قالت لي ونحن نخطط للدرس التالي: سألعب دور الشجرة، شجرة الأسرار. كان الهدف من هذا النشاط هو ربط الأطفال بالشجرة ليصبح لها معنى بالنسبة لهم، وما لم يخطر على بالي أن هذا النشاط البسيط كان طريقاً للأطفال للبوح بأسرارهم الخاصة، الأسرار الحقيقية أو حتى ما كان منها متخيلاً، إلا أن التخيل هنا لم يكن عبثاً أو لمجرد قول شيء، لقد كان فرصة من الدرجة الأولى للبوح ليس بالأسرار فحسب، بل بالمخاوف والهواجس لدى هؤلاء الأطفال ... وهنا أقول مرة أخرى على لسان الصغار: أعطونا الفرصة لنتكلم ونعبر عن أنفسنا، فنحن هنا دائماً.

هنا تكمن أهمية هذا النوع من المشروعات، لما توفره للأطفال من فرص تجريب الخطأ في الخيال، وإصدار الأحكام دون عقاب، والتعبير بقوة وحرية دون مراقب، ما يجعلني أتمنى هذا الشكل لكل الأطفال، وأن ينخرطوا بمشروعات كهذه في رياضهم.

مدرسة الحرية الأساسية المختلطة

جانب من اليوم الدراسي الخاص بالطفولة المبكرة الذي عقده مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.